دار العين للنشر

بيوت عارية

مصطفى عبد ربه

رواية

fb/mashro3pdf

بيوت عارية

رواية

مصطفى عبد ربه

الطبعة الأولى / ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

أنجزت في إطار "محترف نجوى بركات" لكتابة الرواية

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٧٩٦ /٢٠١٦

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 393 – 9

fb/mashro3pdf

بيوت عارية

رواية

مصطفى عبد ربه

دار العين للنشر

fb/mashro3pdf

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد ربه، مصطفى

بيوت عارية: رواية/ مصطفى عبد ربه.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٩ ٣٩٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٣٧٩٦ / ٢٠١٦

fb/mashro3pdf

إهداء

إلى وفاء

وإلهام

وفيروز

وإلى الأصدقاء، واحدًا واحدًا

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

سيمحو النسيم آثار أقدامنا على الرمال
ترى من سوف يخبر الأبدية أننا مشينا مرة ههنا؟

[من أغاني قبائل البوشمن]

غَنَّيْتُ كي أَزِنَ المدى المهدُورَ
في وَجَع الحمامةِ،
لا لأَشْرَحَ ما يقولُ اللهُ للإنسان

[محمود درويش - الجدارية]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

خرجت الثعابين من أحراش البوص هاربة لا تلوي على شيء، واختبأت في البيوت القريبة. فزع الناس وكادوا يهربون من بيوتهم لولا استعانتهم بالرفاعيّة الذين قاموا بعروض حية في الشارع كي يرى الجميع فضلهم وقدراتهم.

لثموا الثعابين، وضعوها في أكمامهم، ورقصت الأفاعي على طرقات الدفوف. خلّع الرفاعية أنيابها، وشربوا السمّ. كانوا يقرأون التعاويذ على الثعبان، فتشل حركته، وفي النهاية يُقتَل بضربة واحدة.

كانت الأفاعي تعيش آمنة في أحراش البوص، حتى قررت الحكومة بناء مستشفى جديد. عبثت الريح في الأحراش على أطراف المدينة أمدًا طويلًا، تحني أعواد البوص التي ارتفعت أكثر من ثلاثة أمتار، حاملة التراب والقمامة إلى مجرى الترعة الجاف. اتخذت أسراب العصافير وأبي قردان من فروع الصفصاف شبه الميتة مأوىً لها.

fb/mashro3pdf

استغلت الأفاعي شعر الصفصاف الكثيف وانحناء أغصانه بفعل الجفاف والريح، وغافلت الطيور الساذجة.

ازدحمت المدينة، وانتشرت السيارات وزادت عوادمها. وكان السل والالتهاب الرئوي يحصدان أرواحًا كثيرة كل عام، وخاصة في الشتاء. أراد المسئولون بناء المستشفى في مكان بعيد، كي يستنشق المرضى هواءً نظيفًا خاليًا من العوادم والتلوث، وكي يحمل الناس أمواتهم بهدوء، بعيدًا عن الأعين.

وعلى غير العادة، سار كل شيء بسرعة. جُرفت الأرض وأزيل جزء كبير من أحراش البوص، وبُنيت المستشفى على مساحة واسعة. مبنى كبير من خمسة طوابق فيه عنابر المرضى وغرف العزل، والاستقبال في الطابق الأرضي، يقابله مبنى آخر من ثلاثة طوابق لسكن الأطباء والتمريض ومكاتب الموظفين. وعلى مقربة، مبنى صغير من طابقين لم تعلق عليه أية لافتة إذ يعرف الجميع أنه مبنى المشرحة. أحاطوا كل هذا بسور منخفض، وأشجار فيكس قصيرة قبيحة.

وبعد تجهيز المستشفى، وقبل أن يأتي المرضى، بَنَتْ الحكومة في الجوار مدرسة ثانوية زراعية أكلت ما تبقى من أحراش البوص، فظهر مجرى الترعة الجاف واسعًا عميقًا مليئًا بالقمامة، وظهر الطين الأسود يابسًا متشققًا.

fb/mashro3pdf

استمر بناء المدرسة فترة طويلة على عكس المستشفى، وفي أيام الخماسين والشتاء، كانت الريح القوية تحمل التراب الأسود اليابس إلى رئات المرضى الملتهبة المريضة داخل المستشفى.

ثم عرضت الدولة كل الأراضي المواجهة للمدرسة والمستشفى للبيع، في محاولة منها لتعمير هذا الجزء النائي. توجس الناس من السكن جوار مستشفى للأمراض الصدرية، مليء بمرضى السل والالتهاب الرئوي. ظلت الأراضي المعروضة للبيع لا تجد مشترين، فخفّض المسئولون أسعار البيع حتى صارت أقرب لهبة مجانية.

في هذه الأثناء، كان عبود الصايح قد وثّق صلاته بالمدينة، وجد لنفسه مكانًا في براحها بعدما هرب من ضيق القرية. اشترى مقهىً صغيرًا في شارع "الصاغة" الحيوي، جوار جامع "السنجق"، واستأجر شقة كبيرة في شارع الحسينية القريب، سكنها مع زوجته وابنيه.

سمع بالأراضي المعروضة للبيع، وعرف بتخوف الناس من السكن جوار المستشفى، فأدرك أن إحجامهم قد يكون ذا عون له، فقط عليه أن يذهب كي يرى بنفسه.

ترك المقهى لصبيانه ذات صباح، وذهب سيرًا. وكلما اقترب، خفتت الأصوات وزادت الأرض تعرجًا وخشونة. وقف على بداية

fb/mashro3pdf

الطريق الترابي الطويل، أسوار المعسكر الإنجليزي القديم عن يمينه، ويرى حركة السير في شارع "عبد السلام عارف" البعيد.

ورغم أنه لم يكن هيّابًا، إلا أن رجفة ما استبدت به، نفضها عن نفسه وضغط على عضلات فكيه بقوة، تذكر طرقات قريته ليلًا وما كان يفعله قبل عشرين عامًا. تذكر قفزه من فوق الجميزة العالية إلى الترعة، وما جعل صيته يلمع في القرية حقًا، عندما تمدد تحت عجلات القطار، وحرص ساعتها أن يراه أصدقاؤه جميعًا.

نظر "عبود" من فوق سور المستشفى المنخفض فلم ير شيئًا ذا بال. ظن أن المستشفى خالٍ لولا أن رأى ممرضة تعبر من مبنى إلى آخر. جال بعينيه يمينًا ويسارًا، درس المنطقة جيدًا، ثم عاد إلى المقهى.

فكر كثيرًا، قلّب الأمر من جميع الأوجه، تقصّى حتى وصل إلى كافة المعلومات التي يريد، ومن خلال علاقاته المتعددة المتشعبة وجلسات الحشيش اليومية، وصل إلى الموظفين المختصين. مائتا متر هي كل ما يريد، وعلى رأس الشارع، المواجهة للمدرسة مباشرة.

جهــز أوراقه واتبــع التعليمات، دفع ما يلــزم لموظفي الحيّ وضرب على الأمر كتمانًا كبيرًا حتى أن زوجته لم تعرف شــيئًا. وبعد أشهر تمّ له ما أراد. وحينها فكر في أن يترك قطعة الأرض

fb/mashro3pdf

حينًا حتى يرتفع سعرها، ثم يعرضها للبيع، وبهامش الربح، يجدد مقهاه، أو يبيعه ويشـــتري مقهى أكبر في نفس المنطقة.

في هذه الفترة، كان صالح أبو العز قد ترك بيت أبيه في كفر صقر بعد مشادة وخلاف كبير. تصدى له جميع إخوته وأغاروا قلب الأب لإقصاء أخيهم الأكبر عن منصب العمدة ولحرمانه من حقه في الميراث كي يتوزع بينهم.

أدرك صالح الفخ متأخرًا، اعتذر وعاد نادمًا. فشلت محاولات الصلح رغم توسط الكثيرين، لكن أباه كان قد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه. اعترى صالح غضبٌ عارمٌ، فباع عشرة أفدنة، هي كل نصيبه من ميراث أمه لأحد أعداء أبيه، ثم ترك القرية إلى الأبد.

وضع كل ثروته في البنك، وأقام فترة طويلة في قرية قريبة من المدينة، عند صديق مقرب يعرفه منذ أيام الحرب والتجنيد. قال إنّه ترك البيت بشكل مؤقت وسوف يعود قريبًا بعد أن تهدأ النفوس. ولم يخبر صديقه بما حدث.

عرف صالح بالأراضي التي عرضتها الدولة للبيع في المدينة الواقعة على بعد مرمى حجر، فكر في شراء الأرض وبناء بيت دون حاجة لأهله. وبمساعدة صديقه أنهى الإجراءات وحصل على ما يريد. قطعة أرض بمساحة 200 متر، وشرع في بناء البيت بعد أسابيع قليلة، وكان بيته هو أول بيت وضع للناس في المنطقة كلها.

fb/mashro3pdf

لم يستطع صالح أن يتزوج من امرأة ذات حسب ونسب، فهو بلا عائلة، رغم أصله الطيب، فتزوج من ابنة فلاح فقير. وبعدما أتم بناء البيت، كان يقف على سطحه فيرى المساحات الخالية، يرى المستشفى والمدرسة التي لم تكتمل بعد، يرى السيارات التي تسير في شارع عبد السلام عارف البعيد، ومقابر الأقباط ذات السور العالي.

وفي يوم ما وعبود الصايح ذاهب مع البنائين والحمالين كي يبني سورًا حول أرضه، بزغت في رأسه فكرة غيرت كل خططه القديمة. رأى المنطقة وقد امتلأت بالبيوت والعمال والأُجراء، ولابد أنهم يريدون الشاي والقهوة والمعسل، وماءً باردًا وتكعيبة تظللهم. لم يتردد، فأمر العمال برفع السقف.

اشترى أكوابًا وملاعق وأراجيل ودخانًا، اشترى كل ما يحتاجه المقهى الصغير المرتجل. أخذ واحدًا من صبيانه وشرع في العمل فورا. كانت زوجته تحل محله في المقهى القديم ساعات الصباح، حتى يعود بعد العصر بقليل حين يرحل البناءون وعمال المعمار.

استمر على هذا الحال عدة شهور، ثم قرر أن يبني بيتًا بدورين، ليكون المقهى في الدور الأرضي. وفي عصر يوم صيفي حار، وهو جالس يتكلم مع العمال في المقهى، نصحه أحدهم بالتقدم بطلب إلى الحي ليكون الشارع باسمه. فتخيل نفسه جالسًا في المقهى،

fb/mashro3pdf

بالجلباب البلدي، يدخن النارجيلة، يحصي الماركات ويباشر العمل، يحيّيه هذا ويسلم على ذاك، واللافتة معلقة على جدار بيته مكتوب عليها شارع "عبود الصايح".

ولما ذهب صالح أبو العز إلى مبنى الحي ليسمي الشارع باسمه، عرف أن عبود قد سبقه فاستشاط غضبًا، سب الموظفين فطردوه. دخل صالح المقهى هائجًا مضطربًا، فرأى عبود جالسًا يدخن النارجيلة باسترخاء والعمال من حوله. صرخ فيه وسبه، وحال العمال بينهما، ودفعوا صالح أبو العز بعيدًا ناحية بيته. وظل مؤرقًا لعدة أيام يفكر في الانتقام وفي استرجاع حقه حتى يطلق اسمه على الشارع.

فكر صالح أن يستعين بصديقه لضرب غريمه وهدم المقهى على رأسه، لكنه تراجع لما فكر قليلًا في عواقب الأمور، فلابد أن الصايح سيرد، وهو وحيد غريب ما له من سند.

ظل صالح أبو العز يراقب القادمين إلى الشارع، يرى البيوت تزداد وتعلو، فيمتلئ قلبه فرحة وأملًا، فقد يجد فيهم من يكون له صديقًا وعونًا. أعماه الغضب لما اتخذ عبود رفاقًا وصحبة من العمال ومن الساكنين الجدد. فأبلغ الشرطة وحرر محضرًا ضده، حيث اتهمه بأنه يقدم الحشيش لرواد المقهى.

أُغلق المقهى لعدة أيام وقُبض على عبود، لكنه خرج بعد فترة

fb/mashro3pdf

قصيرة، وظل صالح خائفًا من انتقامه. يحاذر في سيره، يغلق بوابة البيت بإحكام، امتنع عن تناول الشاي وقراءة الجريدة في الشرفة عصر كل يوم، خوفًا من أن يطلق عليه عبود الرصاص.

لم يحدث شيء ولم يأت الرجل بأية ردة فعل. هذا السكون الذي أخاف صالح أكثر. ظنّ أن عبود يدبر لانتقام رهيب يحتاج تخطيطا طويلا. واستمر صالح على هذا الحال شهورًا، حتى جاءت مولودته الأولى، فنسي كل شيء.

وبعد أن كان بيت أبي العز أعلى بيت في المنطقة، بُنيت على ناصية الشارع بناية مرتفعة من عشرة أدوار، فأكل الغضب والحنق قلب صالح أكثر من ذي قبل. وأشاع بين الجيران الذين يلتقيهم بعد صلاة الجمعة، أن هذه البناية إلى زوال عما قريب ولابد أن تنهار. فالأرض الطينية لن تحتمل كل هذه الطوابق، ولا يعرف كيف يسكن الحمقى في بناية آيلة للسقوط.

ســكان هذه البناية كانوا مختلفين عن أهل الحي القلائل في ذلك الحين، يركبون الســيارات، وبعض نســائهم متبرجات، وأغلبهم يعملون فــي الخليج ولا يأتون إلا في فترة الإجازة الصيفية، لذا لم يعتبرهم أهل الحي من سكان المنطقة.

ذات يوم رأى صالح أبو العز رجلا يدخل الشارع المليء بالحفر والتعرجات، بسيارة فيات فضية، وجواره سيدة مسنة. نزل الرجل

fb/mashro3pdf

من السيارة ووقف أمام قطعة أرض خالية. كان يرتدي بذلة كحلية ونظارة شمسية، ويكلم السيدة المسنة الجالسة في السيارة، وفهم صالح أنها أمه.

عاين الرجل ذو البدلة الكحلية قطعة الأرض عن قرب، ثم رحل، ثم عاد بعد عدة أسابيع ومعه عمال البناء. راقبه صالح لأيام، وذات مرة نزل إليه بكرسي خشبي وزجاجة ماء بارد. عرّفه بنفسه وعرض خدماته. عرف أنه سيبني بيتًا يسكن فيه مع والدته وأخته. وحدث نفسه بأن هذا الرجل ابن الأصول لابد وأن يكون صديقه، هكذا حدث صالح نفسه.

صار ينزل إليه كل يوم بالكرسي الخشبي وزجاجة الماء، وبعدما توطدت العلاقة، نزل بكرسيين وزجاجتي ماء ومنضدة صغيرة، يجالسه حتى ينتهي العمل قرابة العصر.

عرف أنه مهندس عائد من العراق حديثًا، وقد وضع تصميم البيت بنفسه. ولما اكتشف نشاطه في الحزب الحاكم والمجلس المحلي، تحمّس وحكى قصة النزاع على اسم الشارع وما فعله الصايح، فوعده الرجل أنه عندما ينتهي من بناء البيت سوف يبحث مشكلته مع المسئولين. شكره صالح وقد امتلأ حبورًا وسعادة، لأنه وجد ضالته أخيرًا.

توافد الناس وتكاثروا في الشارع الضيق الذي لا يتعدى عرضه

fb/mashro3pdf

الأمتار الستة ويزيد طوله عن الثلاثمائة متر بقليل. جاء القصّاص تاجر الألبان الأسمر ذو العينين الضيقتين مثل اليابانيين، وعبد المنعم مدرس اللغة العربية ذو الصوت الأجش، جاء أبو فوزي وزوجته، وجاءت سلوى علام الأرملة وأبناؤها. جاء حمودة الطوبجي، وأبو وليد الذي أصر على عدم اقتلاع الشجرة من أرضه وبنى حولها فناءً، ثم مات بعد أن وضع الأساس بأسبوع واحد. جاء محمد سلام مع أخيه، وجاء آل شومان، وأحمد الحُطيبي، والدمرداش الصعيدي شديد السمرة، وجاء حامد جمعة تاجر الفواكه الذي بنى بيته بين بيت المهندس يوسف عاشور وبيت الدمرداش.

fb/mashro3pdf

على الناصية، وقف الأصدقاء ينتظرون هاني صامتين. حاول البرد أن يطرد النعاس من عيونهم بلا فائدة. وضع أشرف ابن زكريا الصايح يديه فوق الفحم المشتعل أمام المقهى يتلمس حرارته، وفي النهاية قرر البقاء جواره. تبعه الآخرون ما عدا حسن ابن صالح أبو العز الذي رفض في البدء الاقتراب، إلى أن ناداه سعد، فانضم إليهم.

دائما هاني هو آخر الواصلين، لم يستنكروا انتظاره إلا بعد أن ظهرت سارة. عبرت أمامهم في طريقها إلى المدرسة، فتركوا هاني الذي لحق بهم جريا. صاروا يضبطون حركتهم على ميعادها، يتبعونها حتى تصل المدرسة، يطلقون الدعابات، فتشيح بوجهها حينًا، وتضحك حينًا، ويكاد من أضحكها أن يذهب إلى المدرسة طائرًا.

حين يرونها، غالبًا ما يفتعل هاني الصراع مع أصدقائه إثباتًا

fb/mashro3pdf

لقوته وسطوته. يتغلب على أشرف وحسن دائمًا، ويسير أحمد وسعد وراءهم، رافضيْن الانجراف خلفه.

كان أحمد مشغولًا بشعرها البني المعقوص كذيل حصان، يختلج قلبه كلما تحرك يمينًا ويسارًا. وفي ميدان الشيخ حسانين الواسع، ترتمي الشمس القادمة من كل مكان على شعرها فيلمع. يلسع البرد أحمد فيرتجف، يجتاحه إحساس غامض عندما يرى عضلات ساقيها تنقبض وتتكور وهي تصعد الرصيف، أحب توزيع النمش الدقيق تحت عينيها وفوق أنفها.

تركوا سارة وأختها أمام باب المدرسة ومضوا، وصلوا المدرسة في الثامنة تماما، انقبض قلب أحمد لمرأى البوابة الخضراء الضخمة. وكعادته تحرش هاني بأفراد الشرطة المدرسية الواقفين على البوابة، كل صباح يسبهم أو يفتعل معهم شجارًا، يخافونه ورغم أنهم أكبر منه بعامين.

ذهب كلٌ إلى طابور صفه. وقف أحمد في مؤخرة الطابور ليكون بعيدًا عن الأعين. اختلس النظرات إلى زينب حلمي، مدرسة المواد الاجتماعية، الواقفة أمام الطابور. اختلط في شعرها الأسودُ بالأصفر وملأ جفونها الكحل. ملابسها الضيقة تثير فيه ذات الشعور الغامض. أدى التمارين وردد الأناشيد بتكاسل. سمع ما يقال في الإذاعة دون اهتمام، ثم انتهى الطابور ودخلوا الفصول.

fb/mashro3pdf

وضع حقيبته على الأرض، أخرج كتاب المواد الاجتماعية، فتح الكشكول ذا الغلاف الأحمر، وأعاد النظر في فروضه المدرسية، يخاف أن تكتشف زينب خطأ ما.

صوتها الرفيع العالي وطريقتها العصبية نافدة الصبر، تجبراه على ألا يشرد كثيرًا. طرحت زينب الأسئلة، واختارت الطلاب عشوائيًا. أشارت إليه ونادت باسمه، ورغم سهولة السؤال تعثر أحمد قليلًا في الإجابة. كان ينظر إلى ثدييها النافرين، ولما وقفت جواره، اشتم عطرها السكريّ الممزوج بالعرق. أبعد عينيه وأجاب، سألته سؤالًا آخر، فأجاب بسرعة ثم جلس، والدم يندفع إلى وجنتيه وقلبه يدق بعنف. أحب هذا الشعور الذي يخبُّ في شراييه، أحب تلك اللذة القوية الجامحة. ورغم أنه لم يفهمها، لكنه أحبها.

في الحصة التالية دخل الأستاذ مختار، مدرس اللغة الإنجليزية. تعجبه طريقة شرحه، ويحفظ الكلمات بسرعة وسهولة، رغم كرهه للقواعد التي يدرسها دون رغبة حقيقية. استغرق أحمد في سماع الشرح وحل الأسئلة.

وفي الحصة الثالثة دخل السيد تاج الدين، مدرس الرياضيات، حاملًا المسطرة الخشبية الطويلة والفرجار. أطلق زفرة حارة. تضايقه لهجة المدرس الريفية الفجة وطريقة شرحه المملة. شرد أحمد طويلًا، حتى تمر سريعًا حصة الرياضيات التي يكرهها.

fb/mashro3pdf

دق الجرس معلنًا مجيء الفسحة. خرج أحمد والتقى بأصحابه. يتجنب الألعاب الخشنة، ويفضل الركض، يظل يركض ويركض ويركض، يلف الفناء كله، يناور من يجري خلفه حتى يسقط في الأسر، أو يسقط على الأرض من فرط التعب. دق الجرس للمرة الثانية، فذهب أحمد إلى الحمام، غسل وجهه وشعره، وعاد إلى الصف منهكًا.

عند عودته من المدرسة رأى أحمد سيارة أبيه واقفة تحت البيت. فتح البوابة الحديدية، احتكت حقيبته بالحائط عند دوران السلم، فالتصقت بها خيوط العنكبوت، غمره شعور بالاشمئزاز، وعند وصوله إلى الدور الثاني، حمد اللـه أن باب شقة عمته مغلق. سمع صوت التلفاز آتيا من شقتهم، فعرف أن الباب مفتوح. وضع حقيبته على الأرض، كان أبوه جالسًا يشاهد التلفاز، جلس جواره لاهثا. سأله أبوه عن أحوال المدرسة، فأجاب أن كل شيء على ما يرام، وقام يغير ملابسه حتى يتفادى المزيد من الأسئلة.

سألته أخته الصغيرة وهي جالسة على السرير تلعب بعرائسها:

- ماما جت؟

- لأ لسه. تعالي نبص عليها من البلكونة

وقفا على الكرسي حتى يتمكنا من النظر من فوق سور الشرفة.

fb/mashro3pdf

تأتي أمهما مبكرًا يوم الخميس. رآها آتية من بعيد، تحمل أكياسًا بلاستيكية كثيرة، فنزل جريًا إلى الشارع.

أعطته أمه كيسًا خفيفًا فطلب كيسًا أثقل. تحامل على نفسه، حتى يثبت لها أنه قد صار رجلًا يعتمد عليه. فيما كانت أمه تلقي السلام على النسوة العابرات، والجالسات على عتبات بيوتهن.

خرجت لها أم فوزي من المحل مرحبة. تبادلتا القبلات والسؤال عن الأحوال. ربتت أم فوزي على رأس أحمد، أثنت عليه، ودعت اللـه أن يبقيه لها ويجعله وأخته بخير دائما، كان واقفا جوار أمه، وقد انغرست يد الأكياس الثقيلة بلحم كفه.

رأى سعد في الشباك، فأكدّ على ميعاد اللعب، وقال إنّ أشرف قد اشترى كرة جديدة سوف يلعبون بها اليوم. حملت أمه الأكياس، وألقت السلام على أم عصام، وهي تمضي ناحية البيت.

راح أحمد يتكلم مع أمه ويحكي لها عما حدث في المدرسة، عن إجاباته على كل الأسئلة واستيائه من الرياضيات ومدرسها. كان بين كل درجة وأخرى، ينظر إلى وجه أمه الأسمر وقد اختلط فيه العرق بالابتسامة.

وعندما وصلا إلى شقة عمته، تغيّر وجه أمه، وصمتا تماما. ثم حدث ما يحدث كل يوم، فما أن سمعت عمته صوت خشخشة

fb/mashro3pdf

الأكياس البلاستيكية وصوت أقدامهما، حتى بدأت السباب وكأنها تسب إحدى بناتها. كان أحمد مدركًا تمامًا أن كل هذا موجه إلى أمه، لكنه لم يعرف لماذا تسب عمته أمه.

قفزت أخته إلى حضن أمه، تركهما أحمد على الباب وحمل الأكياس إلى المطبخ، ثم تمدد على الأريكة يشاهد التلفاز، ريثما تجهز أمه الغداء. سمع صوت مروة من الشباك المطل على المنور تخاطب أمها. اتجه إلى باب الشقة بهدوء، وصعد الدرجات القليلة إلى السطح جريًا.

رأى مروة على السطح الملاصق تبحث عن شيء ما. حركت بطة جناحيها بقوة، فجرت مروة خائفة إلى الجهة الأخرى وصرخت. ضحك أحمد بصوت عال، فنظرت إليه غاضبة وسألته عما يضحكه. ينتهز هذه الفرص كي يكلمها، ويسألها عن أي شيء، ثم اكتشف أن الحديث عن المدرسة يفتح مجالًا أكبر. لم يكن الكلام قد بدأ بعد حتى نادته أمه، فنزل جريًا.

جلس إلى مائدة الغداء، يأكلون صامتين، لا صوت إلا صوت ارتطام الملاعق بالأطباق، وتنبيهات أمه المتكررة كي يأكل ببطء، دون أي استجابة منه، يريد أن ينتهي سريعًا كي ينزل الشارع.

وقف أحمد ينتظر سعد تحت البيت. دعته أم فوزي أن ينتظره في المحل، فجلس على الكرسي نافد الصبر، يهز قدميه ويشمّ روائح

fb/mashro3pdf

البصل والكراث والخل، وأم فوزي جالسة في باطن المحل المظلم تقشر الباذنجان وتجهز كميات كبيرة من الفول وعجينة الفلافل للغد، حيث يكثر الزبائن يوم الجمعة بالذات.

سألته عن أحوال المدرسة دون أن تتوقف عن العمل أو عن الابتسام، حذرته من مغبة الشغب، ودعت له ولسعد حفيدها. ثم طلبت منه أن يساعدها في حمل الطست النحاسي العميق الممتلئ بحبات الفول، ليضعاه تحت صنبور المياه.

رأى أحمد أم عصام في جلستها شبه الدائمة على عتبة البيت. بدينة بيضاء، لا تغير جلستها إلا قليلًا، تقوم بصعوبة، وكثيرًا ما تطلب مساعدة أحد العابرين كي يعينها على القيام. لاحظت أم فوزي نظراته التي طالت بعض الشيء، فقالت:

- غلبانة، من ساعة ما ابنها مات وحالها اتبدَل، مات في عز شبابه، قالتها وأغلقت الصنبور.

دخل سعد المحل، أخذ شريحة جزر، ثم مضى مع أحمد يناديان على بقية الرفاق.

جاء أشرف الصايح مختالًا بكرته الجديدة، أمسكها سعد وضغط على جانبيها بيديه، خطفها هاني وركلها في الحائط عدة مرات، حاول حسن أن يخطفها، فتشاجر معه أشرف، ومنعه من اللعب معهم، فتلك كرته، ومن حقه أن يقرر من يلعب بها ومن لا يلعب.

fb/mashro3pdf

دخلا في شجار معتاد، فجلس أحمد على الرصيف يعيد لصق شريط حذائه الرياضي. تدخّل هاني وحسم الموقف معلنًا أنهما لن يلعبا بالكرة أصلًا. ولما توقفا عن العراك، نادى أحمد وقام خمستهم بوضع أيديهم مقلوبة فوق بعضها، لتقرر القرعة من سيكون حارس المرمى المشترك للفريقين.

قلب أشرف يده وأصبح هو المختلف الوحيد، ولابد أن يقف حارس مرمى. رفض وغضب وخبط بقدميه في الأرض وقال إنّه سيأخذ الكرة ويرحل. ضاق الجميع به، لكنهم كرروا القرعة. المرة الثانية كانت من نصيب حسن، رفض أيضا وكاد أن يرحل، أقنعه هاني أنها المرة الوحيدة التي سيقف فيها حارس مرمى وبعد انتهاء الأهداف الستة، سوف يشترك في اللعب.

جلبوا قطعة قرميد وضعوها على بعد أربع ياردات من عامود الإنارة، وشكلوا فريقين. أحمد وسعد في فريق، وهاني وأشرف في الفريق الآخر.

ما كادوا يبدأون المباراة، حتى تعالى صوت أنور العطار الجالس أمام دكانه. هددهم أن الكرة لو جاءت عند محله سوف يمزقها. وضعوا لأنفسهم حدودا وهمية، ورغم أن فاروق الاستورجي كان بعيدًا عنهم بمسافة كبيرة، فقد تعالى صوته هو الآخر قائلا إن التراب يلوث قطع الأثاث ويلتصق بالدهان الطري.

fb/mashro3pdf

كانوا محاصرين تماما، ولا يستطيعون الذهاب إلى أول الشارع خوفًا من السيارات، وخوفًا من متولي الحداد، وخوفًا من أن يكسروا الزجاج على باب مقهى الصايح، ومن خيول عبد الباقي المكاري التي يحممها كل يوم أمام البيت في هذا الميعاد.

كان هاني قد اقترح عليهم قبل ذلك أن يدخلوا مدرسة الزراعة الواسعة، لكنهم خافوا. ادّعى أنه ذهب للعب عند مقابر الأقباط الواقعة عند نهاية الشارع. فكروا في كلامه كثيرًا، لكن ما يحكيه الجميع عن صراخ الموتى المُعذبين الآتي من المقابر ليلًا، وعن الشياطين القابعة في مدرسة الزراعة، جعلتهم يفكرون ألف مرة قبل أن يوافقوا، فهذه الأرواح والشياطين التي تحاصر الشارع من جهتين، قد تخرج بكل سهولة ولن يصدها أحد.

جذب الإمام الفارسي كرسيًا وجلس أمام المقهى. رآه زكريا فجاء مُرحبًا، ثم أمر أحد صبيانه أن يأتي له بالنارجيلة وبالقهوة للإمام. جلسا في انتظار رضا صقر، يتحدثان في أحوال الدنيا. ومن حين لآخر، يُحيي زكريا الصايح زبائنه الخارجين والداخلين، أو يميل أحد صبيانه على أذنه ليقول شيئًا، فيقره زكريا أو يرفضه.

رشف الإمام الفارسي القهوة، أشعل سيجارة وتكلم بحزن عما يحدث في العراق وعما يشاهده الجميع في نشرات الأخبار. حكى لزكريا عن السنين التي قضاها هناك وعن سامراء والنخل العالي

fb/mashro3pdf

ونهر دجلة الوسيع وعن النجف الأشرف، وعن أيام صعبة قضاها في البداية، ثم أتاه اللـه من فضله الشيء الكثير.

قال إنّه في أول الأمر لم يجد عملًا بسهولة، وكان يشعر بالحرج من طلب المال من أصدقائه الذين يشاركهم السكن. كان يدور في الشوارع مفكرًا في الرجوع. يوهنه الجوع حتى لا يكاد يقوى على السير. وذات يوم، سقطت تمرات من نخلة داخل سور بيت، فمسح عنها التراب وأكلها. رآه صاحب البيت فأعطاه كيسًا مليئًا بالتمر وقال له أن يأتي في أي وقت يشاء كي يأخذ من التمر ما يريد. فَهِمَ الإمام لهجته بصعوبة، شكره لكنه لم يذهب إليه مرة أخرى.

كان زكريا يدخن النارجيلة ويهز رأسه إيجابًا، قائلًا بين الحين والآخر: "ايوا يا عم ما انا عارف". وفجأة تذكر شيئًا، فاعتدل في كرسيه ومد يده إلى جيب القميص، سحب ورقة صغيرة مطوية فتحها بحرص، أخرج منها سِنة أفيون وأعطاها للإمام الذي وضعها تحت لسانه، فغزت مرارتها فمه. شرب جرعة كبيرة من القهوة، وأشعل سيجارة أخرى، وأتم حديثه. بعدها بشهور تغير الحال تمامًا، وبسبب عمله، طاف كثيرًا من أرجاء العراق، رغم قصر المدة التي قضاها. قال إنه أحب "الباجه" العراقية، كان يأكلها في مطعم يمتلكه مصري، وهناك شرب البيرة بدينارين فقط. سأله زكريا مستفسرًا:

fb/mashro3pdf

- ايه الباجه دي يا امام؟

- دي لحمة الراس.. بيقولوا عليها باجه

أتى صبي المقهى ليغيّر حجر المعسل لزكريا، وقال الإمام إن حظه التعس هو ما أنهى فترة عمله هناك. بدأت حرب العراق مع إيران بعد ثلاثة أعوام من وصوله، واشتبهت الشرطة فيه ذات يوم. عرف بعدها أن اسمه كان هو السبب. قضى في المخفر أسبوعًا كاملًا لا يعرف جريمته ويقسم للضابط أنه لم يذكر أحدًا بسوء ولم يتكلم عن أحد مع أحد.

خرج بعد أن فقد ماله في المخفر. وبعدما فقد أصحابه الأمل في عودته. ولما عاد قالوا إنهم سيرحلون جميعا عاجلًا أو آجلًا، لكنه يجب أن يرحل فورًا، فلا يعرف أحد ماذا سيحدث غدًا. ولما لم يستطع الخروج عن طريق المطار، عاد هاربًا في باخرة، جوار صندوق فيه جثمان عامل مصري.

غزا الأفيون دم الإمام، فاجتاحه الهدوء، وسحب نفسًا عميقًا من السيجارة بعدما انتهى من الكلام. جاء محمود رشاد، سحب كرسيًا وجلس، حيّاهم وأخذ سيجارة من علبة الإمام. وكعادته بدأ يشكو من ضيق ذات اليد وكيف أن مهنة النقاش لم تعد كما كانت. شرد الإمام متفاديًا سماع كلامه المكرر، ودخل زكريا في حوار مع أحد الزبائن الجالسين جواره، ثم دخل المقهى ليقضى حاجته في المبولة

fb/mashro3pdf

الصغيرة. كانوا جميعا يضيقون بأحاديث محمود رشاد، ولم يكونوا يميلون إليه كثيرًا. لكنه فرض نفسه على الجلسة بشكل ما في غفلة منهم.

سمعوا نفير السيارة الذي أطلقه رضا عدة مرات، سبّ محمود مازحًا وأمره أن ينزل ساقه التي وضعها فوق الأخرى. نزل من السيارة، جلس جوارهم، وطلب المعسل والقهوة. سأله زكريا عن سبب سعادته الغامرة، فحكى رضا أنه التقى بواحدة من اللواتي يسعى وراءهن يوميًا، روى تفاصيل اللقاء وهم يضحكون. ركبت معه التاكسي، فجاذبها الحديث، عرف أنها مطلقة، أوصلها إلى بيتها، وأخذ منها ميعادًا لليلة الغد.

ترك رضا مهنة النقاش، واشترى التاكسي بما ادخره أثناء عمله في الخليج. أراد أن يستريح من المهنة الشاقة، فالعمل على السيارة الأجرة أسهل ويدر مالًا أكثر، والأهم أنه يتيح له أن ينال ما طاب من النساء.

ولما أغلقت المحلات وخفت حركة الشارع، دارت على رواد المقهى النارجيلة وامتلأ الجو بدخان الحشيش. وكلما اشتد هبوب الهواء طقطق الفحم المشتعل، واحتواهم صوت أم كلثوم، وسرى لامعًا صافيًا في صمت الشوارع وهي تغني "فات الميعاد".

fb/mashro3pdf

في السابعة صباحًا، استيقظ الإمام الفارسي على صوت أخته سحر توقظ ابنه في الغرفة المجاورة. جلس على السرير، فتح زجاج الشباك، سمع صوت غليان الزيت قادمًا من المحل.

دخل الهواء البارد إلى رئته فسعل. سمعته أخته، فتحت باب الغرفة وسألته إن كان سيتناول إفطاره هنا أو في المحل، فهز رأسه إيجابًا مشيرًا بيده إلى تحت. خرج إلى الصالة الصغيرة، رأى سعد خارجًا من دورة المياه والمنشفة حول رقبته والماء يقطر من وجهه وشعره. وقف على باب الحمام، وقبل أن يدخل قال له بصوت أجش من أثر النوم:

- ابقى نام بدري عشان متغلبش عمتك كل يوم يالا

ارتدى الإمام ثياب العمل، وضع الشال الأبيض على كتفه، كاد يصطدم بأجولة الفول وأقفاص الخضروات على السلم الضيق المظلم. ولما رأته أمه بملابس العمل، استبشرت خيرًا وازدادت ابتسامتها اتساعًا.

fb/mashro3pdf

- صباح الخير يا امّه

- صباح الرضا يا حبيبي

جلس على كرسي في باطن المحل بعد أن وضع الشال على كرسي آخر. سألته أمه هل تأتي بالإفطار، فهز رأسه إيجابًا.

تركت أم فوزي الفلافل طافية في قدر الزيت المغلي، وضعت الفول في طبق صغير، هرسته وأضافت الملح والكمون، وفص ثوم وزيت الذرة. قام الإمام يقلب أقراص الفلافل بعصا ألمونيوم رفيعة وأخرج لنفسه ثلاثة أقراص. وضعت أمه الطعام على المنضدة مع خمسة أرغفة ساخنة.

كان يأكل ببطء، ينفض الماء عن الجرجير، وأمه ترد سلام العابرين وتلبي طلبات الزبائن بسرعة، وهي مبتسمة كعادتها. أنهى طعامه، فجاءته بالشاي. تحسّرت على أكله القليل، فقال إنّه سوف يحمل ما تبقى معه. يرشف الشاي ويدخن السيجارة بلذة، تنعشه بنسمات الهواء الباردة.

مر سعد من أمام المحل مع أحمد يوسف، ناداه وأعطاه نصف جنيه، حذره من مغبة التصرفات الطائشة وشدد على ضرورة الانتباه لما يقوله الأساتذة. أنهى الإمام كوب الشاي والسيجارة الثانية. أعلن الراديو الساعة الثامنة، فنهض سائلا أمه:

fb/mashro3pdf

- مش عايزة حاجة يا امه؟

- عايزاك طيب

ربتت على كتفه، ودعت له بالرزق والوفير والستر والصحة، وأن يعود سالمًا من كل سوء. لف الإمام الشال الأبيض على رأسه. رأى سيارة رضا واقفة تحت البيت، ورأى ابنه وأصحابه ذاهبين إلى المدرسة. ورغم بعد المسافة، قرر أن يسير ريثما ينتهي صبيه من إعداد ما يلزم.

حين وصل رأى صاحب الشقة جالسًا أمام البيت يتابع العمال وهم ينقلون الإسمنت والرمل فحيّاه. وأثناء الكلام عاد الرجل يؤكد أنه يريد الجدران حريرًا. هز الإمام رأسه بالإيجاب مبتسما، وقال إنّه سوف يتحمل التكلفة كلها لو رأى الباشا خطأ واحدا.

نظر الإمام إلى الأعلى، فرأى السيد صبيه رافعًا يده بالتحية من الشرفة. استأذن من صاحب الشقة أن يصعد، فأعطاه الرجل جزءًا من أجره كي يبدأ العمل بمزاج جيد.

وقف الإمام يدخن في الشرفة، ريثما ينتهي السيد من تثبيت السقالة الخشبية وتخمير عجين الإسمنت والرمل، ثم فتح الراديو الأحمر الصغير على إذاعة القرآن الكريم.

رش الحوائط والأسقف بالماء، تشربها القرميد الأحمر بسرعة.

fb/mashro3pdf

صعد على السقالة، يأتيه السيد بعجين الإسمنت، يقذفه بقوة إلى السقف ليلتصق، ويمرر عليه قطعة حديد ملساء.

نقّل قدميه على جذوع الخشب المتوازية بخفة، حرك جذعه في حركة نصف دائرية ذهابًا وإيابًا، فرد الإسمنت، مكوّنًا فوق القرميد طبقة إسمنت رطبة حرص أن تكون خالية من النتوءات قدر الإمكان.

انتهى من السقف، فجلس القرفصاء على السقالة، مستندًا بظهره إلى الحائط. طلب من السيد كوب شاي. أنصت إلى ترتيل الشيخ البنا الآتي من الراديو وهو ينفث الدخان متابعًا دورانه حتى يتبدد. أخرج من جيبه مسمارًا صغيرًا، وكتب اسم اللـه بخط صغير لا يُرى على إسمنت السقف الطري مثلما يفعل دائمًا. جاءه السيد بالشاي، وضعه الإمام جواره وعاد إلى جلسته. وجلس السيد على الأرض وقد ازدادت برودة الهواء الآتي من الشباك الخالي من الضلف.

يتعجب السيد من شرود الإمام، لا يتكلم كثيرًا، يكاد لا يعرف عنه شيئا. حرص على التقرب منه حتى يعمل معه بشكل دائم. يعرفه منذ عامين فقط. وجده مختلفًا عن كل الأسطوات الذين عمل معهم من قبل، وجده أمينا، يعامله بالحسنى. رفض أن يتركه ليعمل مع آخرين، حتى في أوقات الركود التي قد تطول، لكنّ ما يحيره ويضايقه أحيانًا هو شروده وصمته شبه الدائمين.

fb/mashro3pdf

- أخمّر مونة كمان يا اسطى؟

قالها السيد متعمدًا قطع شرود الإمام وصمته بعد أن أنهى كوب الشاي وثلاث سجائر متتابعة، دون أن يتحرك.

بدأ الإمام في تغطية الجدران بالإسمنت، والسيد يواليه بالقصعات. يعمل بدقة وسرعة منصتًا إلى القرآن. يحب ما يلقيه في قلبه من سكينة. كثيرًا ما تمر عليه كلمات لا يفهمها، وكلما أراد أن يسأل الشيخ عبد الرحيم عن معناها ينسى. يهتز قلبه ويطرب للنغمة العذبة الحلوة، ولكم أحبّ مريم وتعلق بها. بكى ذات ليلة لما تخيلها واقفة بابنها أمام أهلها، وكلهم يتهمونها بالزنا. يتخيل شكل الملائكة بأجنحة كبيرة بيضاء، فيهتز قلبه فرحًا، ويخشع ويرقّ من عظمة اللـه ورحمته.

أذّن الظهر، فحان وقت الراحة. وقف في الشرفة مع السيد يأكلان الطعام الذي حضرته أمه، ويشربان الشاي. نظر السيد إلى القمامة الملقاة في الشارع وقد تجمعت حولها طيور أبي قردان التي اتسخ ريشها وصار بنيًا، ثم قال بفم مليء بالأكل:

- شايف يا اسطى.. ابو قردان متوسخ ازاي.. بقى بياكل من الزبالة.. هج وساب الغيطان بعد ما اترشت كيماوي.

همهم الإمام ونظر إلى طيور أبي قردان التي تضع مناقيرها في

fb/mashro3pdf

القمامة. فرح السيد لما نجح في جذب انتباه معلمه، فأكمل قائلا:

- عارف يا اســطى.. أنا رحت اطلع بطاقة لقيتهم كاتبين محل الميلاد جرجا، وطلعوا ميتين أمي عشــان اغيره.. هي فين جرجا دي يا اسطى؟

- في الصعيد باين

- اللـه!.. طب وانا مالي ومال الصعيد؟!

خرج الإمام من الشــرفة، ألقى عقب الســيجارة على الأرض وداســه بقدمه، ثم أمر صبيه أن يحضّر كمية أخرى من الإسمنت بعد أن ينتهي من الأكل.

fb/mashro3pdf

خرج محمد حسين من المدرسة، بعدما انتهت حصصه، قرر أن يعود إلى البيت مشيًا، أراد أن يؤخر وصوله إلى البيت قدر الإمكان، كي يفكر في حلٍ لما ألم به دون سبب.

ســـار محاذيًا النيل، حاملًا دفاتره. وكلمـــا نبت العرق في كفه نقلها إلى اليد الأخرى، رغم أن الشمس غائبة أغلب الوقت. شروده والهـــواء البارد يخففان قليلًا من عناء الســـير. لم يفهم لماذا لم يعد قادرًا على معاشـــرة زوجته رغم رغبته المشتعلة. مر على زواجه ثلاث سنين، وسناء تتقلب في السرير كل ليلة تسفعها الرغبة. وكل ليلة تنهش عقله الوســـاوس ويأكل الخـــوف روحه. يعرف أنها لن تتحمل أكثر وسوف تنهار في يوم ما.

لم يعد يسمح لها بالخروج وحيدة، يذهب معها إلى أمها كل أسبوع على غير العادة. يخاف أن تحكي عما ألم به. يجلس مع أبيها وإخوانها، يتابع كلامها مع أمها. يكاد يقفز من مكانه كي يلاحقها لو

fb/mashro3pdf

اختلت بها. فشلت كل محاولات زوجته في الذهاب به إلى طبيب، يخاف أن يراه أحد معارفه خارجًا أو داخلًا من العيادة. غضبت زوجته وثارت، فلم يكن أمامه إلا التذلل. استرضاها حتى بكت، ترجاها ألا تقول لأحد وأن تصبر، وألا تتركه أبدًا.

ترك محمد حسين، النيل، خلفه ودخل شارع بورسعيد، ومنه إلى شارع العباسي الضيق المزدحم دائما. عرج على الدهمشاوي، أكبر عطار في المدينة، ظل واقفًا أمام اللافتة الكبيرة. أخرج الورقة من جيبه، تردد في الدخول، خاف من نظرات البائع. أعادها إلى جيبه ومضى في طريقه إلى البيت.

فتح باب الشقة، فخرجت سناء من الحمام. رأى صدرها المكتنز الشبيه بدمعة العين وحلمتيها النافرتين، عبر الجلباب الخفيف المبتل بالماء. سألته هل تأتي بالغداء، فقال ليس الآن، ولما استدارت داخلة، رأى ردفيها اللدنين يهتزان. وضع دفاتره على منضدة السفرة، جوار الساعة التي تشبه الكمان، ودخل يبدل ملابسه.

أحس برغبة في التدخين، فأخرج العلبة التي تركها منذ أسابيع. أشعل سيجارة وجلس يشاهد التلفاز دون رغبة في مشاهدته. عبرت سناء الصالة متجهة إلى الشرفة، حاملة سبت الغسيل. صاح غاضبًا واستنكر خروجها إلى الشرفة بالجلباب المبتل. وضعت ما في يدها على الأرض، وذهبت تغير ملابسها دون كلمة واحدة.

fb/mashro3pdf

أخذ من المطبخ طعام العصفورين وزجاجة ماء. وخرج إلى الشرفة. فتح القفص، وضع الطعام وبدّل الماء، وهو ينظر بطرف عينيه إلى الشرفات والشبابيك المقابلة.

رأى صالح أبو العز جالسًا بالجلباب في الشرفة يقرأ الجريدة، وبقية الشرفات والشبابيك مغلقة. نظرت إليه سناء من فوق كتفها، فطنت إلى نظراته، لم تتكلم، وضعت المشبك الخشبي في فمها وعضّتْ عليه، وأكملت تعليق الملابس المبتلة على الحبال.

قال لها وهو يهم بالخروج، أن تنشر ملابسها الداخلية على صف الحِبال الخلفي، وأن تحاذر من سقوطها في الشارع، وأن تغلق باب الشرفة بعدما تنتهي حتى لا يدخل الذباب.

وقف محمد في المطبخ يصنع لنفسه فنجان قهوة. كان مدركًا أنه يهينها بتصرفاته وبحركاته المكشوفة. حاول كثيرًا أن يكبح جماح شكوكه فلم يستطع. دخل غرفة المكتب حاملًا فنجان القهوة وعلبة السجائر، أغلق الباب، فتح الشباك والراديو، كان المؤشر مضبوطًا على إذاعة البرنامج الموسيقي كما هو لم يتغير. رأى الكمان موضوعًا على المكتب، نسي أن يضعه في حقيبته الجلدية منذ تركه آخر مرة. نقر الأوتار بأصابعه، فوجدها قد ارتخت وتغيّر الدوزان.

فجأة سمع صراخًا آتيًا من الطابق الأول. سمع رضا صقر

fb/mashro3pdf

يسب ابنه ويضربه، والولد يصرخ وأمه تولول. خرج من غرفة المكتب وسناء واقفة في الصالة المظلمة، ينعكس ضوء التلفاز على عينيها الجميلتين المتسعتين من أثر الخوف. اعتادا سماع أصوات الشجار في شقة رضا، فدائمًا يضرب هو أو زوجته ابنهما هاني، أو يتشاجران سويا، أو يصرخان في البنتين. اعتادا تجاهل الأمر، لكن أصوات الصراخ والضرب كانت أقوى هذه المرة.

- انزل شوف في ايه!

صرخت سناء وهي ترتجف خوفًا. تجاهل ما قالته كي يؤخر نزوله ريثما تخف حدة الصراخ والضرب قليلًا. فهو لا يحب رضا، يشمئز من آثار الحريق على جانب وجهه الأيسر، وتزعجه نظراته وعيناه الخضراوتان. يرى فيهما قسوة وغرورًا وفظاظة، فضلًا عن أنه يتجنب الصراعات ولا يقحم نفسه فيها أبدًا. تصنّع البحث عن خُفّهِ في الصالة المظلمة، فأوقدت سناء النور. وجده تحت الأريكة، ارتداه ونزل الدرج، يكاد قلبه يقفز من فمه.

وقف أمام الباب المفتوح بوجل، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى. رأته ليلى زوجة رضا، فصرخت ملتاعة تستنجد به:

- الحقنا يا أستاذ محمد!

رأى الولد مرميًا على الكنبة، رافعًا ركبتيه إلى صدره، واضعًا

fb/mashro3pdf

يديه على وجهه، وأبوه يكيل له الضربات بيده اليمنى، وبالحزام في اليد اليسرى، مطلقًا سيلًا من السباب.

خطا محمد خطوتين إلى داخل الشقة، أمسك رضا الولد من تلابيبه ورماه على الأرض، يركله بقدميه ويضربه بالحزام، ارتطم الجزء الحديدي من الحزام برأس الفتى، فصرخ وانبثق الدم من رأسه. تراجع رضا خطوة إلى الوراء، وتوقف عن الضرب.

وجدها محمد حسين فرصة سانحة كي يتدخل، بدلًا من وقفته عديمة الجدوى. تقدم خطوتين إلى الأمام متوجسًا، يخاف أن يسمع من رضا ما لا يرضيه، قال مستعطفا:

- وحد اللـه يا ابو هاني.. كفاية كده الواد اتعور

ثم جذبه من يده ناحية الأريكة. أفاق رضا وعاد يسب الولد ويلعنه، رفعت الأم ابنها من على الأرض، وأخذته إلى الحمام وهو يئن بصوت خفيض.

- وحياة امك يا ابن الكلب لاموتك المرة الجاية

صرخ في إحدى البنات كي تأتيه بعلبة السجائر، جاءته بها، فخطفها من يدها وصرخ:

- اخفي خشي جوه

- اهدى بس يا حاج رضا.. ايه اللي حصل عشان ده كله؟

fb/mashro3pdf

- ابن الوسخة كان هيجيبلنا نصيبة

ارتبك محمد من السباب الفج في حضرة زوجته والبنتين، وأمامه كشخص غريب. سأله مرة أخرى عما حدث، فأشعل رضا سيجارة وصمت. ظن محمد أنه لن يجيبه، فغمره شعور شديد بالحرج. نفث رضا الدخان، جذب المنفضة جواره، ثم حكى.

أوقفه أحد المشرفين في مؤسسة رعاية الأيتام، وهو عائد بالتاكسي عصرًا، قال له تعال معي وانظر ماذا فعل ابنك. جذبه من ساعده بغضب، كاد رضا أن يضربه، لكنه انتظر حتى يرى.

دخلا إلى حجرة الطبيب المجاورة للبوابة. هناك رأى رضا الفتى المنغولي ياسر، ممددًا على السرير والدم يلطخ ثيابه المهترئة. يئن بصعوبة ويحرك رأسه يمينًا ويسارًا. قال المشرف إن ابنه هو من فعل هذا، ثم سأل الفتى، فأجاب بلسان معوج أن هاني ضربه دون أن يفعل له شيئًا.

من رأوا الواقعة حكوا للمشرف. كان ياسر يجري خلف عنزة ضالة خرجت من مدرسة الزراعة، عرقله هاني فسقط على وجهه. ولما قام يجري خلفه غاضبًا، انهال عليه ضربًا. وأضاف المشرف أن الطبيب في طريقه إلى هنا، ولو احتاج الفتى المنغولي علاجًا لأكثر من واحدٍ وعشرين يوما، فقد تحرر الإدارة محضرًا ضد ابنه، فيدخل سجن الأحداث، والشهود حاضرون. ثم وجه لرضا

fb/mashro3pdf

الاتهامات غاضبًا، وأنّبه على سوء تربيته. فأيُّ طفل هذا الذي يضرب منغوليًا أعرج لا يستطيع إبعاد ذبابة عن وجهه. قال المشرف إن هاني لو كان عنده في المؤسسة، لعرف كيف يتعامل معه.

كبح رضا غضبه ورغبته في ضرب المشرف بصعوبة. أشعل سيجارة وضغط على عضلات فكيه بقوة، وقال من بين أسنانه إنه سيعيد تربية الولد الذي فشل في تربيته فعلا. واستسمح المشرف ألا يحرروا محضرًا حتى لا يضيع الفتى، فالأمر كله مجرد عبث أطفال، وهو سيتحمل تكاليف العلاج، حتى إذا احتاج ياسر دخول المستشفى. ثم مد يده إلى جيب القميص وأخرج مالًا، وقال إن هذا جزء من تكاليف العلاج. رد المشرف يد رضا بحركة عنيفة، مجيبًا أن النقود لن تنفع الفتى بشيء. وعليه أن يشتري الأدوية التي سيكتبها الطبيب. وأن يمنع ابنه من الاقتراب من المؤسسة ومن فيها، ثم دفعه دفعًا خارج العيادة الصغيرة وأغلق الباب على الفتى الراقد متألمًا.

- على آخر الزمن هيدخلنا في سين وجيم.. ويخلي واحد ابن وسخة زي ده يتكلم معايا كده.

قالها غاضبًا، منهيًا الحكاية وهو يهرس ما تبقى من السيجارة المشتعلة في المنفضة. حاول محمد حسين تهدئته، تحدث عن تربية

fb/mashro3pdf

الأولاد في هذا الزمن الصعب. خاصة وأن ابنه قد صار مراهقًا تلزمه عناية كبيرة، وعليه ألا يحمل همًا. فلو أرادت إدارة المؤسسة تحرير المحضر لفعلوا، ولما كلمه المشرف. كل ما في الأمر أنهم لا يريدون تحمل تكاليف علاج الفتى المنغولي البائس.

لما انتهى من الكلام، زاد شعوره بالحرج لأن رضا كان لا يعيره انتباهًا، عرض محمد حسين خدماته للمرة الأخيرة، واستأذن في الخروج.

وعلى مائدة الغداء، حكى لسناء ما حدث وأعاد الحوار الذي دار بينه وبين رضا. حزنت سناء على الفتى المنغولي. يعرفه الجميع مسالمًا لا يؤذي أحدًا. قال محمد إن تربية هاني جعلته عدوانيًا، وإن أباه السادي وأمه القاسية هما السبب. واستطرد قائلا إن رضا لم يضرب ابنه لأنه ضرب الفتى المنغولي، بل لأن المشرف عامله باحتقار بسبب تصرفات ابنه. ثم عبر محمد صراحة عن كراهيته لرضا. وأمر زوجته وهي تكور أوراق الجرائد المتسخة ببقايا الأكل، وتمسح زجاج المنضدة ألا تصادق زوجته أو أية امرأة أخرى من الشارع. ولتستمر العلاقات سطحية لا تتعدى إلقاء السلام. وأقسم منهيًا الكلام أنه لن يتدخل فيما قد يدور بينهم مرة أخرى، مهما حدث.

fb/mashro3pdf

طلب أحمد من السيد تاج الدين مدرس الرياضيات الإذن بالذهاب إلى دورة المياه فرفض. وقال المدرس إنه سوف يسمح له بالخروج بعدما ينتهي الشرح، فأقعي أحمد مكانه شاعرًا بالغضب. كان مسجونًا، يستمع إلى شرح المدرّس الجلف الذي لا يفهم منه شيئًا.

شرد بعيدًا عن حصة الهندسة المملة، تذكّر مروة وتذكّر النتوءات التي بدأت تزدهر في جسدها وخجلها من نظراته إليها. رآها خارجة مع أمها ليلة أمس، ترتدي فستانًا أسود قصيرًا ضيقًا يظهر نهدين صغيرين في بداية التكور، وقد صبغ الأحمر خديها وشفتيها، واستطالت رموشها قليلًا، وزاد الكحل عينيها اتساعًا، فصارت أكبر بعشر سنوات. تمشي أمها جوارها، طويلة بيضاء، بضة، شعرها أصفر، ترتدي تنورة مخملية سوداء. كشفت عن ساقين ملفوفتين، زاد من جمالهما الجورب الشفاف الأسود. وقد فطن أحمد إلى أنهما ذاهبتان إلى حفل زفاف.

fb/mashro3pdf

التقت عيناه بعيني مروة فأشاحت بوجهها. رأى عيون العابرين في الشارع والجالسين على المقهى تأكلهما. سمع أحدهم يقول إن أمها فرس يحتاج خيّالًا عفيًا، ولو اعتلاها ليلة كاملة فلن تشبع.

انتهت حصة الرياضيات، فلملم المدرس أغراضه ورحل. لم تكن لدى أحمد رغبة في دخول الحمام، لكنه شعر بوحشة وكآبة لا يعرف سببهما. وقف على باب الفصل، نظر ناحية غرفة المدير وغرف المدرسين، ثم عبر الفناء الرملي إلى الحمام. فتح الصنبور وغسل وجهه. وقف قليلًا أمام الهواء البارد الآتي من الشباك فارتجف، وفجأة دخل أحد الطلبة إلى الحمام جريًا وأغلق الباب، فخرج أحمد عائدًا إلى الفصل.

في طريق العودة إلى البيت لاحظ سعد تبدل حال أحمد، لكنه لم يرد أن يسأله الآن حتى لا يسمعه بقية الأصدقاء. افترقوا وذهب كل إلى بيته. وبعدما صعد أحمد إلى الشقة، أدرك أنه نسيَ المفتاح. فوضع الحقيبة الثقيلة أمام الباب ونزل.

تلقائيًا ذهب إلى محل أم فوزي. وجدها تغسل الأواني، فسأل عن سعد. قالت إنه صعد حالًا ثم سألته هل أتت أمه؟ فأجاب بالنفي، وأخبرها أنه نسي المفاتيح وعليه أن ينتظر عودتها أو عودة أبيه. أشارت له بالجلوس ووقفت على باب البيت ونادت سعد قائلة إن أحمد ينتظره.

fb/mashro3pdf

انتهت من غسيل الأواني، فغسلت يديها من الصابون، وجلست على الكرسي أمام ماكينة العجين. وضعت الفول المدشوش والكراث والبصل، وبدأ هدير الماكينة الخشن، ورجّ اهتزازها الأرض.

رأى أحمد شفتيّ أم فوزي تتحركان دون أن يسمع شيئا. نظرت ناحيته فجأة فارتبك وأشاح بوجهه ينظر إلى الشارع. أطفأت الماكينة وسكبت العجين الأخضر في وعاء بلاستيكي كبير، رشت عليه مسحوق البيكربونات الأبيض وقلبته بيديها، ثم غطته بقطعة شاش نظيفة ووضعته على رف خشبي. غسلت يديها مجددًا وجففتهما، وجلست جواره. أحيانًا كان يناديها تيتة أم فوزي، بناء على طلبها، فهو كسعد تمامًا ومحبتهما في قلبها واحدة، هكذا قالت.

سألها عن أم عصام، بعدما لاحظ غيابها منذ عدة أيام، فأجابته إنها مريضة وسوف تذهب للاطمئنان عليها بعد قليل. في الصباح، خرج عصام إلى الوردية وترك لأم فوزي المفتاح، فأطعمتها وأعطتها الدواء، لكنها كانت قلقة بشأنها، طلبت من اللـه أن يلطف بها ويتولاها برحمته.

علت نبرة الحزن في صوتها مع الكلمات الأخيرة. فأدرك أحمد أن حالتها سيئة. قالت أم فوزي إن أم عصام حكت لها حلما رأته ليلة أمس، لا يبشر بخير أبدًا. اعتدل أحمد في جلسته ومال بجانب وجهه ناحيتها، كأنه يطلب منها أن تكمل.

fb/mashro3pdf

تابعت أم فوزي وقالت إنها كانت تتكلم بصعوبة، وقد تجمعت قشور بيضاء على جانبي فمها. أجلستها على السرير وقدمت لها الماء. وبعدما استطاعت الكلام، قالت إنها رأت نفسها تسبح في فضاء الغرفة التي تنام فيها، وقد اختفى الباب والنافذة، فظلت تبحث خائفة عن أي منفذ لتخرج، ثم رأت الماء يتسرب من شق في سقف الغرفة، ذهبت ناحيته محاولة أن تخرج فلم تستطع. مدت يديها توسّع الشق، ولما أطلت برأسها خارجًا، رأت سماءً غير السماء التي تعرفها. رأتها بيضاء سكرية، وجاء في قلبها أن ملمسها كالقطيفة، ثم حررت جسدها كله، ثم استيقظت على صوت عصام يسألها إن كانت تحتاج شيئًا قبل أن يذهب إلى الوردية.

انقبض قلب أم فوزي بعدما سمعت حلم جارتها. شددت على حاجتها للدفء والراحة وتناول الدواء في مواعيده. وضعت عليها الغطاء وفتحت زجاج الشباك كي يتجدد هواء الغرفة. وقالت لها سأعود بعد الظهر.

صمتت أم فوزي، لم يفهم أحمد شيئًا ولم يعلق، فأضافت أن كل المحتضرين يعرفون أنهم سيموتون قبلها بعدة أيام. طلبت من اللـه بصوت غيّره الحزن وقد أوشكت على البكاء أن يلطف بها وألا يحمّلها ما لا تطيق، فهي امرأة طيبة لم ير أحدٌ منها شرًا، ويكفي أن قلبها مكسور منذ وفاة ابنها. واستطردت تقول إنها قد عرفت بوفاته من حلم حكته لها أيضا، لأن أم عصام طيبة، واللـه يبث في

fb/mashro3pdf

قلبها الأحلام والرؤى التي دائمًا ما تتحقق.

- وعرفتي ازاي يا تيتة؟

ذات يوم جاءتها أم عصام عائدة من السوق، حين كانت بعد قادرة على الحركة. جلستا معًا في المحل تشربان الشاي وتحكي لها منامها. رأت نفسها شابة عفية مثلما كانت، وقفت تتزين أمام المرآة وقد حلت شعرها الأسود الطويل، وفي يدها ثلاثة أمشاط احتارت أيهما تختار. سقط المشط الأوسط على الأرض، وعندما انحنت كي تمسكه لم تستطع النهوض مرة أخرى. انكسر ظهرها ولم تعد قادرة على الوقوف مستقيمة. جاء في قلب أم فوزي يومها أن علاء ابنها الأوسط سوف يصيبه شر ما. لكنها طبعًا لم تخبرها بما يعتمل في نفسها. وبعدها بأقل من أسبوع مات ابنها غرقًا.

سرت رعدة في جسد أحمد النحيل. نظر إلى يدها المجعدة ذات العروق النافرة والخاتم الذهبي الكبير المغروس في إصبعها، وتوجس خيفة منها. قالت إن اللـه يرسل دائمًا إشارات إلى عباده الصالحين لكي يحذرهم، أو لكي يخبرهم بشيء. وكلما كان قلب العبد نقيًا أبيض، كلما اقترب من اللـه فأنار بصيرته وقلبه.

قطع مجيء سعد كلامها، وقف على الباب متعجبًا من جلستهما وحديث جدته الذي انقطع بمجيئه. قام أحمد وخرج إلى صديقه الذي أخبر جدته أنهما سيصعدان إلى السطح كي يطعما الحمام.

fb/mashro3pdf

قبل الوصول إلى السطح، تحول السلم الإسمنتي إلى سلم خشبي نخر متهالك. خاف أحمد وصعد بحذر، بينما سبقه سعد وصعد جريا، ووقف لاهثًا يفتح القفل الكبير. حتى وقت قريب كان صعود السطح محرمًا على سعد، وكانت رعاية الحمام مهمة خالته سحر، يصعد معها ولا يغيب عن عينيها أبدا. ورث حبه للحمام من عمه الراحل فوزي. لم يكن أبوه مهتمًا به كثيرًا، وانشغال جدته وكبر سنها منعاها من الصعود إلي السطح. رأى أحمد الأقفاص الخشبية مقامة أفقيًا، ليست كأبراج الحمام الكبيرة العالية التي يراها فوق بعض البيوت.

فتح سعد قفصًا، أمسك بحمامة بيضاء، جسّ صدرها المنتفخ، وقال "هذه حمامة زاجلة". ظل يفتح الأقفاص ويخرج واحدة أو اثنتين يجس صدرها البارز المتكور، يضع لها الطعام ويغير الماء، ويمد يده داخل الأقفاص ليتأكد من وجود البيض.

كلما أمسك سعد بحمامة تكلّم وأمطر أحمد بالمعلومات عن نوعها وخصائصها وأشكالها، حتى اختلط في ذهن أحمد الحمام الزاجل بالهزاز بالكشك الأحمر بالبهلوان، ولم يعد قادرًا على استيعاب شيء. مدّ أحمد يده وأمسك حمامة معقودة القدمين بخاتم حديدي. أحب شكلها، ريشها الناعم، صوتها وهزة رقبتها الدائمة، عينيها الصافيتين البريئتين.

fb/mashro3pdf

ترك أحمد صديقه يطمئن على الحمامات وأفراخها، واستند بصدره وبطنه على السور. رأى دجاجات عمته تتحرك بحرية على سطح الدار، وديكها الضخم يمشي مختالًا بريشه الأسود وعرفه القاني. تمنى أن يرى مروة واقفة على سطح دارها، لكنه رأى الغسيل الأبيض يرفرف في شرفتها.

انتهى سعد وجاء يقف جواره ويحكي عما يراه. فمن هنا رأى ابن الأستاذ عبد المنعم واقفًا على سطح داره يشير إلى ابنة صالح أبو العز. رأى بنات الدمرداش يلعبن على السطح وقد سقطت إحداهن وانحسر الفستان عن نصفها الأسفل. خاف أحمد أن يكون سعد قد رآه وهو يكلم مروة، أو أن يكون قد رأى منها أو من أمها شيئًا. قال سعد وكأنه قرأ أفكاره، إن هاني رأى مروة وأمها في الشارع ليلة أمس، إن مروة سمراء تشبه أباها، ولا تشبه أمها البيضاء الحلوة، وتقول أم هاني إن ناهد أم مروة تعمل راقصة.

- يالا ننزل أنا زهقت!

قالها أحمد بضيق، باترًا الكلام. تمم سعد بسرعة على الأقفاص للمرة الأخيرة، ثم نزلا.

جلس أحمد في المحل مع أم فوزي وسعد، ينتظر مجيء أمه أو أبيه. طلبت منهما أم فوزي ألا يتحركا ودخلت إلى أم عصام. تحدثا عن مباراة الأهلي والزمالك الأخيرة. عبّر سعد عن انبهاره

fb/mashro3pdf

بياسر ريان وسرعته الفائقة وتمريراته الذكية، وكيف مر من هشام يكن مدافع الزمالك. وقد وعده أبوه أنه لو حصل على درجات جيدة هذه السنة، فسوف يشتري له قميص ياسر ريان، وحذاءً رياضيًا جديدًا.

سمع أحمد صوت موتور السيارة قبل أن تمر من أمام المحل، فقفز خارجًا. توقفت السيارة أمام البيت. أنّبته أمه على نسيانه المفتاح، وكررت أخته كلام أمه وهي تصعد السلم وتهز حقيبتها وضفيرتيها يمينًا ويسارًا. فتحت أمه الباب، فحمل حقيبته ودخل.

أثناء الغداء، صرح برغبته في بناء عش حمام على السطح. قالها بوجل وتردد متوقعًا الرفض. تباطأت حركة أبيه وهو يأكل، ولم يرد منتظرًا أن ينتهي أحمد من الكلام، وسألت أمه متعجبة:

- وانت من امتى بتحب تربي الحمام؟!

أجاب أنه رأى أعشاش الحمام على سطح أم فوزي ويريد مثلها. قال أبوه إن الحمام يحتاج رعاية فائقة وعليه أن يطعمه ويغير له الماء كل يوم، فضلا عن التطعيمات التي لابد أن تتم في مواعيدها. ولسوف يحاسبه اللـه إذا أهمل رعاية الحمام ومات. تحمس أحمد، فالكلام يحمل موافقة ضمنية. قال إنّه سوف يبدأ بعدد صغير، ولو نجح الأمر وكبرت الزغاليل وكثر عددها سيستمر، وإن لم يكن يبيعها في سوق الثلاثاء، أو لمن يملك عُشًا. عقدت أمه حاجبيها،

fb/mashro3pdf

وهي تحمل الأطباق الفارغة، وقالت باستنكار:

- زغاليل وسوق التلات؟.. انت بتقعد مع مين يا ابني؟

تخيلت ابنها واقفًا على السطح بالفانلة الداخلية، يشير للأسراب بالراية ويصفر حتى يعود الحمام إلى عشه. تعلقت عينا أحمد بوجه أبيه، عله يستشف منه الموافقة.

- ربنا يسهل!

قالها أبوه ولم يزد، وقام يغسل يديه. أدرك أحمد أن هذا رفضٌ غير مباشر، أو مماطلة حتى يمر الوقت وينسى. ففي ظنهم أن الأمر ما هو إلا مجرد عبث أطفال وسينتهي بسرعة.

fb/mashro3pdf

بعد ثلاثة أيام، ماتت أم عصام. عاد أحمد من المدرسة ورأى الكراسي موضوعة في صفين متقابلين أمام بيتها، وصوت القرآن آتٍ من الداخل. وقف في الشرفة يشاهد استعدادات المأتم. رأى أحدهم يعلق ثريات كبيرة أمام البيت ويوصلها بعامود الإنارة. رأى أمه تدخل الشارع من الجهة الأخرى، من الحارة المفتوحة على شارع الأعصر. لم ترد أن تمر من أمام بيت أم عصام بملابس فاتحة اللون.

وفي المساء ارتدت الأسود، ونزلت مع أبيه إلى العزاء. وأمرته ألا ينزل حتى لا يترك أخته بمفردها. اقتصر العزاء على جلوس الرجال في الشارع أمام البيت، والنساء في الداخل. ووضِع جهاز الكاسيت على إفريز الشباك المفتوح، ليسمع المعزون في الداخل والخارج ترتيل القرآن.

سلم يوسف عاشور على عصام وعلى الجالسين حوله وجلس.

fb/mashro3pdf

أولاد عصام الصغار يطوفون بأقداح القهوة السادة على الحاضرين. دخلت سميحة الشقة، سلمت على أخت الفقيدة المنهمكة في البكاء، وعلى إيمان ابنة أم عصام وقبلتهما، وجلست جوار أم فوزي.

وقفت زوجة عصام في المطبخ مع بعض النسوة الأخريات، يصنعن القهوة ويغسلن الأواني. والمعزيات جلسن على كراسي الصالون المذهب شبه المتهرئة. يختلسن النظرات إلى ناهد زوجة أحمد جمعة. ترفع الطرحة كلما انزلقت عن شعرها الأصفر المصبوغ، فيظهر طلاء أظافرها الأحمر القاني. ترتفع التنورة شبرًا أو أكثر كاشفة عن ركبتيها. تخففت من الماكياج تماما، فبانت جميلة أيضا. يلوين الشفاه والرقاب امتعاضًا وقد امتلأت عيونهن مقتًا وغيرةً وحسدًا.

رأت أم فوزي الحزن في وجه سناء زوجة محمد حسين الجالسة أمامها. لاحظت في عينيها شيئًا ما وظلت تتابعها من طرف خفي، حتى انزلق كُم البلوزة، فرأت الشعر نابتًا على ساعدها.

جاء صوت عصام من الخارج ينادي على إحداهن معلنًا أن زوجها سيغادر. قامت المرأة الجالسة جوار أم فوزي، سلمت على أخت الفقيدة وابنتها، ودّعت الجالسات وخرجت. فأشارت أم فوزي إلى سناء، كي تأتي وتجلس جوارها. أرادت أم فوزي أن تتأكد من ظنونها، لكنها لم تستطع أن تكلمها وسط الجالسات المتربصات

fb/mashro3pdf

بكل شاردة وواردة. ربتت على كتفها، وانتظرت حتى تبتعد العيون عنهما.

بدأت أخت الفقيدة في البكاء فجأة، فاتجهت إليها الأنظار وانطلقت عبارات المواساة. كانت تتبع نظامًا محكمًا للبكاء. تصمت حينًا وتبكي حينًا، عاملة بنصيحة إحداهن حين مالت على أذنها قائلة: "حبة وحبة يا ام حنان.. حبة وحبة"، قاصدة بهذا ألا تهدر مجهودها كله مرة واحدة، وأن توزعه بحرص على الليلة كلها.

انتهزت أم فوزي هذه اللحظة، فمالت على سناء وهمست:

- مالك يا بنتي؟.. حالك مش عاجبني

بكت سناء بصمت وأخذت تهتز وتمسح عينيها. أدركت أم فوزي أن هذا بكاء امرأة تئن من وجع مخبوء، تنتحب حسرة على حالها. سألتها بمكر وحنكة عن الأستاذ محمد وأحواله، فأجابت سناء من بين دموعها أنه بخير ولم تزد. عادت تسألها بطريقة ذات مغزى عن بوادر شيء سيأتي في القريب العاجل، فهزت رأسها نفيا. قالت أم فوزي بعد فترة صمت إن لكل مشكلة حلا، وعليهما بالذهاب إلى الأطباء والمشايخ. فالله لا ينسى عباده وسوف يرسل فرجه عما قريب. وذكرتها بأن الزوجة الصالحة - وهي ابنة الكرام ـ تتحمل زوجها في الأيام المُرّة قبل أيام الرخاء.

fb/mashro3pdf

سمعت سميحة طرفًا من الحديث الذي دار همسًا، وفهمت ما تقصده أم فوزي. ثم أشاحت بعينيها عن نظرات فريال أخت زوجها. فمنذ جاءت إلى البيت وفريال تكيل لها السباب، وقد حاولت أكثر من مرة إفساد علاقتها بزوجها. حاولت سميحة أن تتقرب منها حتى تلين، فلم ترق لها أبدًا. وعندما اتهمتها فريال في شرفها انتهى كل شيء بينهما. تجملت بالصبر، ولم تخبر زوجها بشيء، لكي لا تفسد علاقته بأخته إلى الأبد، وحينها يستحيل أن يعيشا في بيت واحد، وفضلًا عن ذلك سوف تنكر فريال حينها ما قالت.

وقبل أن تدق الساعة العاشرة، رحل أغلب الرجال ومعهم زوجاتهم، رحلوا وظل كل شيء على حاله. لم يبق سوى عصام وحوله أصدقاؤه. على وجهه تعبير محايد، يتكلم قليلًا، ويدخن كثيرًا. ودعه يوسف عاشور ثم أخذ زوجته ورحل.

fb/mashro3pdf

بعد وفاة أم عصام بشهرين، أراد الحاج حمودة أن يقيم سرادقًا وأن يشعل الليل فرحًا بابنه. راح إلى عصام يستأذنه قبل أن يفعل أي شيء، مراعاة لحقوق الجيرة، وحتى لا يلومه الناس.

كان بيت الحاج حمودة آخر بيوت المالكين. من بعده تبدأ بيوت المستأجرين الذين نزحوا من الصعيد ومدن القناة منذ التهجير في السبعينيات. غالبيتهم يعملون في مهن بسيطة. حرفيون وأجراء أو باعة خضر وفاكهة في الأسواق المجاورة. يعاملهم سكان النصف الأول من الشارع بتعالٍ وازدراء مستتر، يظهر في رد التحية بجفاء وعدم الاهتمام بمشاركتهم أحزانهم وأفراحهم.

كان صبري عرفة بائع الأسماك أكثرهم صخبًا، يعرف الجميع لسانه السليط، ومشاجراته المتعددة. كلما رأى أحد سكان النصف الأول في السوق، يكيل له السباب إن لم يشتر منه، ولو فعل يطفف الميزان، ويعطيه سمكًا نتنًا.

fb/mashro3pdf

تشاجر ذات يوم مع أحد الصبية في مقهى الصايح، بحجة أنه لا يعامله كما يعامل الآخرين. احتوى زكريا الموقف بحنكة لما فهم رغبته في افتعال الشجار، وبعد حين مل صبري الجلوس على المقهى.

يتحدث صبري دائمًا بالسوء عن الجميع. يسب الدمرداش - جاره الأقرب - ويسب بناته السمراوات الدميمات مثله. يصف أحمد جمعة بالقواد، الذي ترك لامرأته الحبل على الغارب، لأنها تصبغ شعرها ووجهها، وترتدي تنورات قصيرة.

وجد صبري السماك في أم عوني - جارته في البيت المقابل - حليفًا ممتازًا قويًا. تشاركه في كراهيتهم، وتجلس طيلة الوقت في شباك الطابق الأرضي، تتلمس أخبارهم، وتتقصى مصائبهم وتشمت، وتطلق الشائعات.

لما رأى صبري الأنوار والسرادق والكراسي توضع في الشارع، قال لأم عوني بغلٍ إن هؤلاء القوم قد انعدمت فيهم الأخلاق. لا يحترمون الأموات، ولا يحترمون مشاعر الآخرين، يقيمون الأعراس، وجسد أم عصام لم يبرد في القبر بعد.

أشعلت أم عوني سيجارة، وأخذت تسبهم وتلعن أخلاقهم، ودناءتهم. نمى بينهما اتفاق ضمني بأن هذه الليلة لابد أن تنفض، احترامًا لذكرى الفقيدة، ولكي يتعلم حمودة أن يحترم الأصول.

fb/mashro3pdf

كان الحديث على مسمع من أبنائه الثلاثة، فخرجوا ومعهم الكرة. نادوا على عمرو حفيد أم عوني الأسود الضخم. كونوا فريقين، وجعلوا المرمى المشترك أمام السرادق مباشرة. حرصوا على ركل الكرة عاليا، وعلى التصويب تجاه اللمبات الملونة. طاشت الكرة عدة مرات، ثم أصابت حبلًا كاملًا، فكسرت مصباحين.

خرج الحاج حمودة يصرخ فيهم، ويحذرهم من تصويب الكرة ناحية السرادق. صرخ فيهم صبري عرفة وأم عوني، كأنهما يحذرونهم من التمادي. ووعدوا حمودة أنهم سيكفون عن اللعب، وسوف يبتعدون حالًا.

عادوا للعب فطارت الكرة فوق السرادق، وذهبت بعيدًا. عبرت من أمام أحمد وأصدقائه. فجرى خلفها رامي ابن صبري السماك. عاد حاملًا الكرة تحت إبطه. سار مخاتلًا ببطء كي يستفزهم. بصق على الأرض من فوق كتفه، ولما اقترب حذره حمودة صارخًا فيه، تركه رامي وركض ناحية أبيه.

وبعد حين رأوا الكرة ترتطم بالأخشاب التي ترفع خيمة السرادق، فمالت لدرجة خطرة، حتى كادت تسقط، لولا الحبال المتينة.

فطنوا إلى محاولة إفساد الليلة. فأولاد صبري لم يلعبوا سوى مرات معدودة. كانت إحداهما لإفساد مباراة لهم، فقامت بينهم مشاجرة، لم يفضها إلا تدخل حمودة نفسه.

fb/mashro3pdf

غيروا موقع اللعب. تقدموا قليلًا حتى وقفوا أمام بيت يوسف عاشور. تظاهروا باللعب، وأخذوا ينتظرون مجيء الكرة ناحيتهم كي يأخذوها ويفسدوا المخطط. وبعد حين جاءتهم الكرة. استغلوا أن السرادق يخفي الجهة التي وقفوا فيها، أخفوها بسرعة في مدخل بيت يوسف عاشور. ولما جاء سامح ابن صبري الأكبر، سألهم عنها سؤال المتأكد من الإجابة. فرد هاني ببرود أنهم لم يروا شيئًا.

رأى سامح الكرة في مدخل البيت. تقدم ليأخذها، فقفز هاني فوق ظهره وأسقطه على الأرض. جاء إخوته يركضون لنجدته، فقذفهم سعد وحسن وأشرف بقطع القرميد. أغلق أحمد بوابة البيت حتى لا يدخل أحدهم ويأخذ الكرة. ثم شارك في قذف المهاجمين، أصابوهم إصابات مباشرة لقرب المسافة فاختبئوا في الحارة المفتوحة على شارع الأعصر. ردوا ورشقوهم بالحجارة أيضا. والمعركة دائرة بين هاني وأخيهم الأكبر سامح الذي سقط على الأرض. خافوا أن يقذفوا هاني لكي لا يصيبوا أخاهم.

نام سامح على الأرض، حاول أن يحميَ وجهه من ضربات هاني العنيفة. شعر بالدم ينزف من أنفه، ركله في بطنه بقوة. كف هاني عن الضرب وأمسك ببطنه يئن. دفعه سامح وركض بقوة والتحق بإخوته. استمر التراشق والسباب حتى جاء عبد اللـه الاستورجي

fb/mashro3pdf